« هذى طباع الناس معروضة
فخالطوا العالم أو فارقوا »
« أبو العلاء »

اجتماع الحبيبين

فى زمن حكم غليوم ملك صقلية كان يعيش فى مملكته رجل من الاعيان اسمه « السيد امبرى » رئيس دير « ترابانى » وكان ينعم بثروة عظيمة

خلف هذا السيد ذرية كثيرة من الاطفال فأحوجه ذلك الى كثير من الخدم . وثم عزم على شراء كثير من صغار العبدان الذين اختطفهم من أطراف « أرمنيا » بعض من يحترفون القرصنة من أهالى « جنوا » وجاءوا بهم من الشرق.

وكان بين أولئك العبدان الصغار الذين هم على ما يظهر من أصل تركى و يشبهون الرعاة طفل تبدو على وجهه الوداعة أكثر من الآخرين وتلوح على سيماه دلائل النبل والرفعة

وكان اسمه « تيودور » وهو و إن كان عبدا رقيقا إلا أنه نشأ بعد ذلك وترعرع بين أطفال السيد إمبر وكان لا يأكل إلا معهم .

وكلما كبر نمت عواطفه وتيقظ شعوره وتنبهب طبيعته الحساسة التي لم تكن تماثل طبيعة العبيد

وجماع القول أنه عرف كيف يبهر سيده بمزاياه النادرة حتى أعتقه واقتنع بأنه من أصل تركى عريق فعمده وأسماه « بطرس » وجعله أمينه

***

وكان للسيد إمبرى فتاة اسمها « فيولانت » على جانب عظيم من الامانة وهى ذات وجه فاتن جذاب وكانت حينئذ فى المرحلة السعيدة من العمر حيث يبدأ الشعور بالحاجة الى الحب .

لم يكن يفكر أبوها فى تزويجها فآلمها هذا الاهمال ووقعت فى حب بطرس - وقد كانت لاتتردد فى إظهار حبها له عن طيبة نفس - لو لم يمنعها الحياء عن ذلك .

وكان مايلقاه بطرس الفتي من إكرامها - مع ماركب فى نفسه من الصفات الكريمة التى خصته الطبيعة بها - سببا فى توليد ميل فيه نحوها لم ينشب أن صار هياما حقا بكل معانى هذه الكلمة .

ولكنه لم يجرؤ على اطلاعها على مايكنه لها قلبه من هوى وتحامى جهده أن يعمل أو يقول قولا يدل على ذلك

فلم يتسرب الى أحد فى البيت أى ظن ولاحامت حوله أية ريبة .

ولكنه كان اذا خلا مع (فيولانت) — أقل حذراً، فلم تخف عليها حاله وسهل عليها الاهتداء الى حبه اياها من خلال إجلاله واحتراسه الدائمين .

وأرادت أن تشجعه على الحب فأخذت ترعاه منذ ذلك الحين فلا تبدى له سخطا أو غضبا اذا رأت تنهده الذى كان يبديه أمامها أو نظراته المختلسة التي لم ينقطع عن استراقها منها .

وبالرغم من كل العقبات لجآ الى لغة العيون وان كانا يودان لو أتيحت لهما فرصة الافضاء بالكلام الصريح .

وأخيراً رق لحالهما الزمن فأمكنتهما الفرصة من تحقيق ذلك الأمل المحبوب ، وأزالت الخوف الذى كان يحول بينهما وبين الافضاء بحقيقة هيام كل منهما بالآخر

كان للسيد « امبرى » — على بعد نصف فرسخ من « ترابانى » قصر فى الريف على جانب كبير من الفخامة ، تذهب اليه زوجه وابنته مع سيدات اخريات فيقضين فيه أوقات السرور والانشراح

ففى ذات يوم خرجت تلك السيدة ورفقتها — وخرج بطرس فى صحبتهن حسب عادته — ولما حان وقت العودة إلى المدينة غامت السماء وتلبدت فجأة بالسحب — وكان ذلك يحدث كثيرا فى فصل الصيف — وأنذر كل مافى الطبيعة بقرب هبوب العاصفة .

وخشيت السيدة امبرى ورفيقاتها أن يعوقهن ذلك عن الوصول إلى المنزل فأسرعن بالعودة إلى « ترابانى » وظللن يسرعن الخطا ليصلن فى أقرب وقت

أما الفتى والفتاة فقد حسبهما الحب وبعث فيهما من القوة والنشاط ما أنساهما شدة العاصفة فسارا أمام الجميع مغذين السير إغذاذا وتقدماهما بمسافة كبيرة وما زالا يغذان السير حتى غابا عن الأنظار ثم قصفت الرعود داوية مجلجلة وقامت على أثر ذلك زوبعة هائلة اضطرت الأم ورفيقاتها إلى الالتجاء إلى كوخ مزارع فى الطريق

أما « بطرس » و « فيولانت » فلم يجدا أمامها ملجأ يحتميان به الا طللا باليا تهدمت جوانبه فلم يبق فيه الا لوح واحد من ألواح السقف فوقفا تحته يتقيان به هطول المطر واضطرهما ضيق المكان إلى تلاصق جسميهما معا ، وقرب بينهما هذا التلاصق وزاد توثيق عرى الألفة بينهما كما أثلج قلبيهما الهائمين وأتاح لهما فرصة الافضاء بما يجنه قلباهما من الوجد — بصراحة لامواربة فيها — فبدأها الفتى المحب قائلا :

« كم أنا مدين لهذه العاصفة بالسعادة و كم يبهجنى أن تطول فلا تنتهي أو تتحول إلى أبد — لو كان ذلك فى حدود الامكان — حتى أظل هكذا سعيدا بالقرب منك ياحبيبتى »

فأجابته الفتاة

« ليت ذلك فى الامكان »

ولم تكد تتم قولها حتى تناول « بطرس » يدها بلهفة المشوق وانهال عليها بالقبلات وأجابت الفتاة انعطافه وتوددة بمثلهما وأكثر ثم تعانقا والتقت شفاههما المحترقة بنار

الوجد وأسرفا فى اجتناء أعذب ثمار الحب منتقمين من تلك الايام الطويلة التى لم يتمكنا فيها من المصارحة بحبيهما .

بطرس وفيولانت

ولن أتدخل فى تفصيل ماتذوقاه — حينئذ — من صنوف اللذات فى تلك الخلوة المنفردة التى التقيا فيها رأساً إلى رأس وحسبى إن أقول إن العاصفة لم تنته الا بعد أن نعما بكل مايمكن أن ينعم به حبيبان لا يقل هيام أحدهما عن هيام الآخر، دون أن يحسبا للمستقبل حسابا

* * *

سكنت العاصفة فسارا فى طريقهما الاولى حتى بلغا أبواب المدينة ثم انتظرا وصول بقية الرفقة ، فلما حضرت ذهبوا جميعا إلى المنزل

ولم ينس الحبيبان — بعد ذلك — تلك السعادة التى نعما بها فى ذلك الطلل المتهدم فترقبا سنوح الفرص حتى إذا أمكنتهما لم يدعاها تفلت من أيديهما دون أن ينتهزاها ، ولم يرتب فى أمرهما أحد، وتكرر ذلك الأمر حتى حملت منه الفتاة فحزنهما ذلك أشد الحزن، وحاولت « فيولانت » أن تتخلص من حملها وطرقت فى ذلك كل حيلة فلم تنجح ولم يكن بطرس أقل هما منها فقد أيقن أن ذلك الحادث لن يمر دون أن يودى بحياته فصمم على الهرب وكاشف حبيبته بعزمه فقالت له :

« إذا هربت فانى أقتل نفسى بلا تردد » :

— « وماذا تريدين أن أعمل ياحبيبتى بعد أن يظهر أمرك وتنكشف حيلتنا؟ انهم سيرحمونك لضعفك ويجدون لك من ذلك الضعف شفيعاً أما أنا فماذا يشفع لى أنا التعس المسكين الذى لا يخفف من شناعة جرمه أى اعتبار فهل تريدنى على أن استهدف لنقمة أبيك العادلة وأذهب ضحية غضبه الحق ؟ »

ـــ : لن استطيع أن اخفى جرمى طويلا ، ذلك أمر مقرر أعترف لك به ، ولكن كن على ثقة ياحبيبي أنك ـــ اذا حافظت على كتمان سرى كما احافظ انا ـــ فلن يستطيع أحد أن يعرف أنك أنت الذى ارتكب هذا الجرم أو اشترك فيه قط ، ثق بذلك واعتمد على حبك وإخلاصى لك . »

وعلى هذا الشرط قبل حبيبها أن يبقى فى البيت وقال

« سأظل مقيما هنا ، فاذكرى وعدك هذا ياحبيبتى . »

* * *

ورأت « فيولانت » أن بطنها تعلو قليلا قليلا على مر الايام وعلمت أن من المحال أن تخفى حالها طويلا فكاشفت امها بحقيقة أمرها وتوسلت اليها ـــ والدموع فى مآقيها ـــ راجية منها أن تنقذها من هذه الورطة .

ولم تكد تعلم امها بذلك منها حتى أفعم قلبها يأساً ، فانهالت عليها لوما وتعنيفاً وسبابا وطلبت إليها أن تخبرها باسم من جنى عليها وهتك عفافها . ولكن الفتاة تحاشت أن تذكر اسم حبيبها حتى لاتعرضه للخطر ، فلفقت لأمها اكذوبة لم ترتب الأم فى صدقها وأخذتها حقيقة مسلما بها ، وترقبت الام وابنتها فرصة سانحة فرحلا معا الى الريف .

وحان وقت الوضع وأحست الفتاة بالطلق فظلت ترسل صيحات الألم عالية داوية فى اجواز الفضاء ، وانها لكذلك اذ عاد ابوها من الصيد ولم يكد يصل الى منزله ليستريح من العناء حتى قرع أذنيه صوت ابنته المتألمة وصرخاتها العالية فاسرع الى غرفتها توا ، ولم يكد يرى أمها حتى سألها عن جلية الأمر .

* * *

بهتت الأم حين رأته أمامها ورأت كل انكار لا يجدى فاضطرت الى الافضاء اليه بحكاية ابنتهما كما سمعتها منها بلا تحريف . ولكنه كان أقل انخداعا من زوجه وأقل اغضاء فلم يقتنع بذلك التلفيق وقال لها إن من المحال على « فيولانت » أن تجهل الشخص الذى حملت منه . وليس لها مناص ـــ اذا أرادت أن يصفح عن زلتها ـــ من أن تصارحه بالحقيقة كاملة ، والا كان جزاءها الموت المحقق بلا رحمة .

بذلت الأم كل مافى وسعها فى تهدئة زوجها وتخفيف غضبه ، أكدت له أنها

ستنفذ اشارته ، محاولة بذلك أن تشغله قليلا أو تهدىء من روعه ولكن شيئا من ذلك لم يجد ولم تستطع ان تترضاه بهذه الوسيلة .

فقد اقترب الزوج من ابنته — شاهرا فى يده حسامه — وكانت قد وضعت غلاما اثناء ذلك الحوار ، فلم يرث لضعفها واقبل عليها غاضبا ، فخيرها بين موت وشيك أو تفضى له باسم والد الطفل . وثمة حملها الخوف على خيانة حبيبها ، فاعترفت لأبيها بكل شىء بعد أن ترددت كثيرا فى الافضاء اليه بالحقيقة .

* * *

اشتد حنق « امبرى » حين عرف مقترف ذلك الأثم فانهال عليها سبا وتعنيفا وكان ينفذ سيفه فى جسمها ، لو لا أنه غالب نفسه مغالبة شديدة مؤجلا انتقامه منها الى وقت آخر .

وظل يصب عليها من اللعنات والسباب ماشاء له غضبه حتى نفس بذلك عن صدره قليلا . ثم ركب جواده عائدا الي « ترا بانى » وكان أول همه — بعد أن بلغ المدينة — أن يذهب الى السيد « كونوراد » الذى كان متوليا القضاء فى ذلك البلد ونائبا عن الملك فيه . ولم يكد يرفع اليه شكواه حتى أمر بالقبض على « بطرس » فى الحال وشرعوا يحققون معه ولجأوا الى وسائل التعذيب القاسية حتى أرهقوه ارهاقا فأقر لهم بكل شىء . ولم يكد ذلك التعس يعترف لهم بجرمه حتى حكموا عليه بالاعدام شنقا — بعد أن يجلد أولا فى ميادين المدينة

ولقد سر « امبرى » من ذلك الانتقام وان كان لم يشف كل غليله ويرضى شهوة انتقامه الجامحة كلها ، فصمم على اكمال ظفره بقتل ابنته وولدها فى نفس اليوم الذى يشنق فيه عشيقها وامتلأت نفسه بتحقيق تلك الفكرة السوداء فنادي خادما له يثق به ويعتقد بأمانته ، فخرج أمامه بالسم بالنبيذ ووضعهما فى قدح وناوله إياه كما أعطاه حساما أيضاً ، ثم قال له — :

« اذهب الى « فيولانت » فقل لها — واحذر أن تخالف أمرى — إنها مخيرة بين إحدى الميتتين بالسم أو بالسيف . فاذا أبت أذقتها ماهى جديرة به من النكال على ملأ من الناس .

ومتى انتهيت من ذلك فخذ طفلها الذى أتت به الى هذا العالم فاضغط

رأسه بين يديك وبين الحائط ثم الق به فى أقذر طريق من الطرق » .

* * *

كان الخادم متوحشا ميالا الى الشر والاجرام فذهب لتحقيق أمر سيده دون أن يشعر بشىء من الكراهية لادائه .

وكان لابد من إنجاز كل هذه الاعمال الفظيعة ـ البالغة أقصى حدود القسوة ـ فى نفس اليوم الذى يعدم فيه «بطرس»

ولقد أخرجوا «بطرس» من سجنه الضيق ـ بعد أن جلدوه مائة جلدة ـ وذهبوا به الى ساحة الاعدام ، فمروا أثناء سيرهم بنزل شهير كان فيه وقتئذ ثلاثة من الارمن ذوى الخطر ، وكان ملكهم قد أرسلهم الى «روما» ليقابلوا «البابا» رغبة فى تسوية مسألة هامة عظيمة الخطر ، وعن لهم أن يمضوا بضعة أيام فى تلك المدينة فلما علم بذلك أعيانها وسراتها أسرعوا الى لقائهم والاحتفاء بمقدمهم .

وبلغ اسماع أولئك السفراء نبأ قدوم ذلك المجرم فأطلوا من النوافذ لرؤيته ـ وكان عاريا من رأسه الى وسطه وكانت يداه مغلولتين إلى ظهره ـ ورآه «فينيه» ـ أحد السفراء الثلاثة وكان شيخاً وقورا جليل القدر فاهتم لأمره ولمح على صدره علامة كبيرة حمراء اللون حبته بها الطبيعة ـ من ذلك النوع الذى يطلق عليه النساء هنا اسم (الورد) و يسمونه أيضاً (وحما) ـ ولم يكد يراها حتى أعادت الى ذهنه فى الحال ذكرى أحد أطفاله وكان قد اختطفه قرصان منذ خمسة عشر عاما وانقطعت عنه أخباره منذ ذلك الحين ، وذكر أن ولده لو عاش الي اليوم لأصبح فى مثل هذه السن ، فساورته الشكوك والقلق على هذا الغلام وخشى أن يكون ولده ولكى يحسم هذه الشكوك ناداه باسمه ، ولم يكد يسمع «بطرس» نداءه حتى رفع اليه بصره ـ عن غير قصد ـ وثمة وقف الجلادون احتراما للسفير ، فسأل المتهم من أى بلد هو ومن أبوه ، فقال « بطرس» ـــ أنا من «أرمينية» واسم أبى «فينيه» وقد جاءنى الى هنا قوم لاأعرف من هم

وثمة لم يرتب «فينيه» بعد أن سمع منه هذا الجواب فى أنه ولده فأسرع الى ضمه وأقبل زميلاه عليه يهنئونه بلقائه ورأى الجلادون ذلك فكفوا عن شنق الغلام ، ثم القى السفير على ولده معطفاً ثمينا ليغطى به جسمه ، وأخذ من الضابط أمراً بوقف التنفيذ حتى يصدر أمر آخر ، ولما علم السفير من أفواه الناس السبب الذى حكموا على

ابنه بالشنق من أجله . ذهب ومعه السفيران ورجال الحاشية الي السيد «كونوراد» فقال له ـ «ان الذى حسبته عبداً ليس إلا حراً وهو ولدي وأنا أبوه وهو مستعد للزواج من تلك الفتاة التى يزعمون أنه غرر بها ، فارفق به من أجلى حتى نرى نواياه، فاذا قبلته الفتاة زوجا لها عفوت عنه دون أن تكون قد خالفت القانون أو عملت ضد نصوصه.»

خجل الحاكم من تسرعه فى الحكم على ابن السفير الذى كان يحسبه عبداً رقيقاً وشعر بدهشة شديدة ، وأدرك أن «فينيه» على حق فى طلبه فأقره فى الحال . ثم أرسل الى «امبرى» فأحضره وقص عليه ما حدث، فتعاظمت دهشته ، وكان لا يشك فى أن ذلك الحكم القاسى قد نفذ فى ابنته فندم أشد الندم على تسرعه ولكنه أسرع بارسال رجل آخر الى ابنه ليحول دون إهلاكها اذا كان فى الوقت متسع ؛ وقد وصل ذلك الرسول ـــ لحسن الحظ ـــ قبل فوات الفرصة فوجد الخادم واقفا أمام سرير «فيولانت» ممسكا السيف باحدى يديه والسم بالاخرى محاولا ارغام الفتاة المسكينة على تخير إحدى الميتتين فأظهر له ما قرره سيده، فاطمأنت الفتاة وعاد الرجلان الى سيدهما ليخبراه بما تم.

* * *

امتلأت نفس «امبرى» فرحا بذلك فذهب الى لقاء السفير «فينيه» معتذراً اليه جهده طالبا منه الصفح عن تلك الخشونة التى عامل بها رفيقه القديم مؤكداً له أنه يكون أسعد الناس اذا تزوج «تيودور» من ابنته التى يسمح له بها عن طيبة خاطر، فقبل منه «فينيه» اعتذاره وأخبره أنه شديد الرغبة فى تزويج ولده من ابنته مؤكداله أنه اذا رفض ذلك لم يكن له من جزاء على رفضه الا الاعدام وكذلك تم الاتفاق بين الأبوين ، فذهب الى تيودور الذى لم يكن قد عاد إلى رشده بعد من الذعر الذى اشتمل عليه . ولم يكد يطلب اليه أن يقترن بفيولانت حتى نسى كل آلامه لفرط ما غمره من السرور والابتهاج وقال له

ـــ : «ليس أشهى الى قلبى من تحقيق هذه الأمنية التى ستجعلني ـــ إذا تمت ـــ أسعد إنسان فى العالم»

ثم بعثوا الى «فيولانت» يسألونها عن رأيها فى الاقتران بتيودور ، فلم تكد تسمع منهم ذلك حتى تبدلت آلامها فرحا وامتلأت نفسها أنساً وابتهاجا وقالت:

لهم انها لاترى فى العالم كله مايعدل سرورها بهذا الزواج من حبيبها «تيودور» وهكذا تم عقد الزواج فى نفس اليوم وان كانوا قد ارجأوا حفلة العرس حتى يعود «فينيه» بعد أن يتم مهمته التى جاء من أجلها مع البابا

وقد ابتهج كل من فى المدينة بخلاصهما واقبلت «فيولانت» على طفلها ترضعه وصفا لها الوقت فاشرق جمالها واكتمل حسنها ولم تكد تنتهى من أيام النفاس حتى عاد «فينيه» من روما فلم تتوان فى القيام بواجب حميها على أتم وجه، وقد رأى السفير منها ما بهره من جمال وأمانة فعاملها كما يعامل ابنته وقد تمت حفلة العرس على أحسن ما تتم عليه حفلة من بهاء وروعة

* * *

وبعد أيام قلائل عاد «فينيه» الى وطنه ومعه ابنه وزوج ابنه وطفلهما فوصلوا الى بلدهم سالمين، وعاش الزوجان عيشة هادئة لذيذة ناعمين بين أحضان الحب.

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما ✻ يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

تمت

أوپرات أبي شادي

ثروة أدبية فنية

من الشعر والغناء والتمثيل

تطلب من المكاتب الشهيرة

(٢٥ — ٨ م)